المذبحة في نيسان

عصام سخنيني

١ — تأملات في الخلفية

مذبحة الثالث عشر من نيسان التي ذهب ضحيتها نحو ثلاثين فلسطينيا، بخلاف مئات القتلى والجرحى الذين اثقلوا الايام اللاحقة ، لا يمكن تفسيرها الا ضمن اكتشاف المكونات السياسية والاجتماعية — الاقتصادية التي أوصلت الى قيام مجموعة من حزب الكتائب بارتكاب هذه المذبحة التي ستظل أحد ابرز المعالم المأساوية في التاريخ الفلسطيني. فهذا الحقد ، لا يجد له تبريرا في الاسباب المباشرة التي زعم انها كانت وراء الحادث ، وانما هو حصيلة تراث يشرش في البنية الاجتماعية والسياسية للحزب ونظرته الشاملة الى ، وبالتالي تعامله مع ، القضايا الاجتماعية والسياسية المطروحة ليس في لبنان فحسب وانما في المنطقة باجمال .

ان الاساس الذي اقيمت عليه بنية الحزب هو الطائفية . وبعيدا عن استرجاع مراحل النشوء فان الطائفية راهنا مرتبطة أشد الارتباط بالوضع الطبقي في لبنان . فالمكون الطبقي هنا بارز المعالم تفضحه النظرة الاستبارية للاحزاب الطائفية في لبنان التي تكشف ان كوادرها العليا واطاراتها القيادية تسربت من شرائح البرجوازية العقارية والكمبرادورية التي هي فالنتيجة المستفيدة الوحيدة من وجود الطائفية التي تكرس هيمنتها الاجتماعية والسياسية . ان تسييس الدين ، في الطائفية ، وتحويله من نظام روحي الى مؤسسة سياسية ، يخدم دعاة الطائفية لجهة وضع بديل عن الانتماء للشعب بمفهومه القومي ، بالانتماء الى الطائفة وبالتالي الولاء للزعامات الطائفية وتكريس وضعها القيادي المسيطر . وتستفيد هذه الزعامات داخل الطائفة الواحدة من تنمية النزعات الطائفية في كبت أي تحرك مضاد لمواقعها من خلال الادعاء بـ « وحدة » الطائفة ومنع انقساماتها الداخلية تحت طائلة التهديد بـ « الخطر » الذي يأتيها من الطوائف الاخرى . ومن جانب آخر ، فان هذه الاطارات القيادية — بحكم مواقعها الطبقية — تسعر الحقد الطائفي للإنحراف بالوعي الطبقي والحس بالاضطهاد لدى الطبقات الفقيرة وتوجيهه نحو نزاع طائفي يخدر النضال الطبقي ومن ثم يبقي الهرم الاجتماعي على حاله لا يمس . ان حرب الطوائف ، لا تعايشها ، هو أبرز عناوين الطائفية، وهو الاطار القادر وحده على تجميد النضال الاجتماعي وحبسه دون التفجر في وجه الطبقات الاستغلالية الاحتكارية في المجتمع التي أبرز رموزها الاطارات الطائفية العليا .

ان هذا الوضع مسؤول عن ان البرجوازية اللبنانية لم تحقق الانجازات التاريخية التي حققتها البرجوازيات في المجتمعات الاخرى . فالاستقلال الوطني والوحدة في اطار الدولة القومية يعتبران (بالاضافة الى التصنيع) أبرز الانجازات التي تحققها البرجوازيات الوطنية ، غير ان البرجوازية اللبنانية ان نجحت جزئيا في تحقيق الاستقلال الوطني بمظاهره العامة ، فقد فشلت في تحقيق الوحدة في اطار الدولة القومية (وحدة الشعب) ، وظل الانتماء الى هذه الوحدة ، والاحساس بها وممارستها فعلا ، ادنى بدرجات من الولاء للطائفة.

ان ما سبق يتمثل كثيفا في الكتائب — الطائفية المنشأ والممارسة . وان تأكيد اطاراتها العليا وهي التي رشحت من شرائح البرجوازية الكمبرادورية ، وادبياتها على تدعيم النظام الاقتصادي اللبناني (على الرغم من انه اقتصاد رأسمالي مهترىء) ، والتغني بـ « التجربة اللبنانية » يكشف طبيعة البنية الطبقية لهذه الاطارات . وتتأكد هذه الحقيقة بالممارسة في المواقف السلبية التي تقفها الكتائب عادة من النضالات المطلبية للجماهير اللبنانية . غير ان ثمة جانبا آخر تنميه الكتائب في المسألة الطائفية غير منفصل عما سبق هو التركيز على « خصوصية » الوضع في لبنان ، بسبب وجود الطائفية فيه ، وتفرده عن اوضاع الوطن العربي . واذا وجدت